﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

يريد الحق سبحانه وتعالى ان يقرب صفات التمزق فى المنافقين الى فهمنا، ولذلك فهو يضرب لنا الامثال، والامثال جمع مثل وهو الشبيه الذى يقرب لنا المعنى ويعطينا الحكمة ، والأمثال باب من الابواب العريقة فى الادب العربى .

فالمثل أن تأتى بالشىء الذى حدث وقيل فيه قولة موجزة ومعبرة، رأى الناس أن يأخذوا هذه المقولة لكل حالة مشابهة .

ولنضرب مثلا لذلك، ملك من الملوك، اراد ان يخطب فتاة من فتيات العرب، فأرسل خاطبة اسمها عصام لِترى هذه العروس وتسأل عنها وتخبره، فلما عادت قال لها ماوراءك ياعصام ؟ اى بماذا جئت من اخبار، قالت: له ابدى المخض عن الزبد. المخض هو ان تأتى باللبن الحليب وتخضه فى القربة حتى ينفصل الزبد عن اللبن، فصار الاثنان - السؤال والجواب - يضربان مثلا. تأتى لمن يجيئك تنتظر منه اخبارا فتقول له: ما وراءك ياعصام.

ولايكون اسمه «عصام» . .ولم ترسله لاستطلاع أخبار ، بينما تريد أن تسمع ما عنده من أخبار .

وحينما تريد مثلا . . أن تصور تنافر القلوب . . وكيف أنها اذا تنافرت لا تلتئم أبدا . . ويريد الشاعر أن يقرب هذا المعنى فيقول :

ان القلوب اذا تنافر ودها
مثل الزجاجة كسرها لا يشعب (أى لا يجبر)

وساعة تنكسر الزجاجة لا تستطيع اصلاحها . . ولكى يسهل هذا المعنى عليك وتفهمه فى يسر وسهولة . . فإنك لا تستطيع أن تصور أو تشاهد معركة بين قلبين . . لأن هذه مسألة غيبية . . فتأتى بشىء مشاهد وتضرب به المثل . . وبذلك يكون المعنى قد قرب . . لأنك شبهته بشىء محسوس . . تستطيع أن تفهمه وتشاهده . .

ولقد استخدم الله سبحانه وتعالى الامثال فى القرآن الكريم فى أكثر من موضع . . ليقترب من اذهاننا معنى الغيبيات التى لا نعرفها ولا نشاهدها . . ولذلك ضرب لنا الأمثال فى قمة الايمان . . وحدانية الله سبحانه وتعالى . . وضرب لنا المثل بنوره جل جلاله . . الذى لا نشهده وهو غيب عنا . . وضرب لنا الأمثال بالنسبة للكفار والمنافقين . . لنعرف فساد عقيدتهم ونتنبه لها . . وضرب لنا الأمثال فيما يمكن أن يفعله الكفر بالنعمة . . والطغيان فى الحق . . وغير ذلك من الأمثال . . قال الله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ ﴾

(سورة الاسراء)

وقد ضرب الله جل جلاله لنا الأمثال فى الدنيا وفى الآخرة ، وفى دقة الخلق . . وقمة الإيمان . . ومع ذلك فإن الناس منصرفون عن حكمة هذه الأمثال . . كافرون بها . . مع أن الحق تبارك وتعالى . . ضربها لنا لتقرب لنا المعنى . . تشبيها بماديات نراها فى حياتنا الدنيا . . وكان المفروض ان تزيد هذه الأمثال الناس ايمانا . . لأنها تقرب لهم معانى غائبة عنهم . . ولكنهم بدلا من ذلك ازدادوا كفرا ! !

ولابد قبل أن نتعرض للآية الكريمة : « مثلهم كمثل الذى استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون » . . أن نتحدث عن بعض الأمثال التى ضربت فى القرآن الكريم . . لنرى كيف أن الله سبحانه وتعالى حدثنا عن قضايا غيبية بمحسات دنيوية :

ضرب الله تبارك وتعالى لنا مثلا بالقمة الايمانية . . وهى انه لا إله إلا الله . . وكيف أن هذه رحمة من الله سبحانه وتعالى . . يجب أن نسجد له شكرا عليها . . لأن فيها وقاية لنا من شقاء . . ومع ذلك فإن الله تبارك وتعالى يريد بعباده الرحمة ،

ولكن بعض الناس يريد أن يشقى نفسه فيشرك بالله جل جلاله . . وبدلا من أن يأخذ طريق الايمان الميسر . . يأخذ طريق الكفر والنفاق والشرك بالله الذى يملك كل شيء فى الدنيا والآخرة . . يقول الحق جل جلاله :

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾

(سورة الزمر)

بهذه الصورة المحسة التى نراها . . ولا يختلف فيها اثنان . . يريد الله تبارك وتعالى أن يقرب الى اذهاننا صورة العابد لله وحده ، وصورة المشرك بالله . . ويعطينا المثل فى عبد مملوك لشركاء . . رجل مملوك لعشرة مثلا . . وليس هؤلاء الشركاء العشرة متفقين . . بل هم متشاكسون أى أنهم مختلفون . . ورجل آخر مملوك لسيد واحد . . أيهما يكون مستريحا يعيش فى رحمة ؟ . . طبعا المملوك لسيد واحد فى نعمة ورحمة . . لأنه يتبع أمرا واحدا ونهيا واحدا . . ويطيع ربا واحدا . . ويطلب رضا سيد واحد . . أما ذلك الذى يملكه شركاء حتى لو كانوا متفقين . . فسيكون لكل واحد منهم أمر ونهى . . ولكل واحد منهم طلب . . فما بالك اذا كانوا مختلفين ؟ أحد الشركاء يقول له تعالَ . . والآخر يقول له لا تأت ، وأحد الشركاء يأمره بأمر ، والآخر يأمره بأمر مناقض . . ويحتار أيهما يرضى وأيهما يغضب ؟ . . وهكذا تكون حياته شقاء وتناقضا . .

إن الله سبحانه وتعالى يريد أن يقرب لنا الصورة . . فى قضية هى قمة اليقين . . وهى الايمان بالواحد الأحد . . يريدنا أن نلمس هذه الصورة . . بمثل نراه ونشهده . . وأن نرى فيض الله برحمته على عباده . . ويمضى الحق سبحانه ليلفتنا إلى أن نفكر قليلا فى مثل يضربه لنا فى القرآن الكريم :

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ ﴾

(سورة النحل)

فالحق تبارك وتعالى فى هذه الآية الكريمة . . يطلب منا أن نفكر فى مثل مادى محسوس . . أيهما خير ؟ . . أذلك الصنم الذى يعبده الكفار وهو لا يأتى لهم بخير أبدا . . لأنه لا يستطيع ان ينفع نفسه فكيف يأتى بالخير لغيره . . بل هو عبء على من يتخذونه إلها . . فإنهم يجب ان يضعوه وأن يحملوه من مكان إلى آخر اذا أرادوا تغيير المعبد أو الرحيل . . واذا سقط فتهشمت اجزاء منه . . فإنه يجب أن يصلحوها . .

اذن فزيادة على انه لا يأتى لهم بخير . . فإنه عبء عليهم يكلفهم مشقة . . ويحتاج منهم الى عناية ورعاية . .

أعبادة مثل هذا الصنم خير ؟ أم عبادة الله سبحانه الذى منه كل الخير وكل النعم . . والذى يأمر بالعدل . . فلا يفضل أحدا من عباده على أحد . . والذى يعطى لعباده الصراط المستقيم . . الذى لا اعوجاج فيه . . والموصل الى الجنة فى الآخرة . . ان الله سبحانه وتعالى يشرح بهذا المثل غباء فكر المشركين الذين يعبدون الأصنام ويتركون عبادة الله تبارك وتعالى .

وهكذا يعطينا هذان المثلان توضيحا لقضية الوحدانية والألوهية . . ثم يأتى الله سبحانه وتعالى بمثل آخر . . يضرب لنا مثلا لنوره . . هذا النور الإلهى الذى يضىء الدنيا والآخرة . . فيضىء القلوب المؤمنة . . إنه يريد أن يضرب لنا مثلا لهذا النور بشىء مادى محس . . فيقول جل جلاله :

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ ﴾

(سورة النور)

كأن الله سبحانه وتعالى .. يريدنا أن نعرف بتشبيه محس .. أن مثل نوره كمشكاة .. والمشكاة هى (الطاقة) .. وهى فجوة فى الحائط بالبيت الريفى .. ونحن نضع المصباح فى هذه الطاقة .. اذن المصباح ليس فى الحجرة كلها .. ولكن نوره مركز فى هذه الطاقة فيكون قويا فى هذا الحيز الضيق .. ولكن المصباح فى زجاجة .. تحفظه من الهواء من كل جانب .. فيكون الضوء أقوى .. صافيا لا دخان فيه .. كما أن الزجاج يعكس الأشعة فيزيد تركيزه .. والزجاجة غير عادية ولكنها : « كوكب درى » .. أى هى مضيئة بذاتها وكأنها كوكب .. ووقودها من شجرة مباركة يملؤها النور لا شرقية ولا غربية .. أى يملؤها النور من الوسط ويخرج صافيا .. والزيت مضىء بذاته دون أن تَمَسَّهُ النار .. فهى نور على نور .. أيكون جزء من هذه المشكاة ذات المساحة الصغيرة مظلما ؟ .. أم تكون كلها مليئة بالنور القوى ؟ .

وهذا ليس نور الله تبارك وتعالى عن التشبيه والوصف ، ولكنه مثل فقط للتقريب إلى الأذهان .. فكأن نور الله يضىء كل ركن وكل بقعة .. ولا يترك مكانا مظلما .. فهو نور على نور ..

ولقد أراد أحد الشعراء[1] أن يمدح الخليفة[2] وكانت العادة أن يشبه الخليفة .. بالأشخاص البارزين ذوى الصفات الحسنة .. فقال :

إقدام عمرو فى سماحة حاتم
فى حلم أحنف فى ذكاء إياس

وكل هؤلاء الذين ضرب بهم الشاعر المثل كانوا مشهورين بهذه الصفات .. فعمرو كان مشهورا بالاقدام والشجاعة .. وحاتم كان مشهورا بالسماحة .. وأحنف يضرب به المثل فى الحلم .. وإياس شعلة فى الذكاء .. وهنا قام أحد الحاضرين[3] وقال : الأمير أكبر فى كل شىء ممن شبهته بهم .. فقال أبوتمام على الفور :

لا تنكروا ضَربِى لَه مَنْ دُونَهُ
مثلاً شَرُودًا فى النَّدَى والباسِ

(١) هو أبو تمام
(٢) هو احمد بن المعتصم
(٣) هو يعقوب بن اسحاق الكندى .

فـالـلهُ قَـدْ ضَـربَ الأقـلَّ لِـنـوره
مـثـلا مـن المِـشـكـاةِ والـنّـبْراس [1]

فأعجب أحمد بن المعتصم والحاضرون من ذكائه وأمر بأن تضاعف جائزته .
والله سبحانه وتعالى . . يضرب لنا المثل بما سيشهده المؤمنون فى الجنة . . فيقول جل جلاله :

﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَـٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَـٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ ﴾

(من الآية ١٥ سورة محمد)

هذه ليست الجنة . . ولكن هذا مثل يقرب الله سبحانه وتعالى لنا به الصورة بأشياء موجودة فى حياتنا . . لأنه لا يمكن لعقول البشر أن تستوعب اكثر من هذا . . والجنة فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . . ومن هنا فإنه لا توجد اسماء فى الحياة تعبر عما فى الجنة . . واقرأ قوله تعالى :

﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة السجدة)

فإذا كانت النفس لا تعلم . . فلا توجد ألفاظ تعبر عما يوجد فى الجنة . . والمثل متى شاع استعماله بين الناس سمى مثلا . . فأنت اذا رأيت شخصا مغترا بقوته . . وتريد ان تفهمه أنك أقوى منه تقول له . . إن كنت ريحا فقد لاقيت إعصارا . . ولا توجد ريح ولا إعصار فيما يحدث بينكما . . وإنما المراد المعنى دون التقيد بمدلول الألفاظ .

فالحق سبحانه وتعالى . . يريد أن يعطينا صورة . . عما فى داخل قلوب المنافقين . . من اضطراب وذبذبة وتردد فى استقبال منهج الله . . وفى الوقت نفسه

(١) من ديوان أبى تمام بشرح الخطيب التبريزى .

ما يجرى فى القلوب غيب عنا . . وأراد الله أن يقرب هذا المعنى الينا . . فقال : «مثلهم كمثل الذى استوقد نارا » . . أى حاول أن يوقد نارا . . والذى يحاول أن يوقد نارا . . لابد أن له هدفا . . والهدف قد يكون الدفء وقد يكون الطهى . . وقد يكون الضوء وقد يكون غير ذلك . . المهم أن يكون هناك هدف لايقاد النار . .

يقول الحق سبحانه وتعالى : « فلما اضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون » . . ذلك انهم فى الحيرة التى تملأ قلوبهم . . كانوا قد سمعوا من اليهود أن زمن نبى جديد قد أتى . . فقرروا أن يؤمنوا به . . ولكن ايمانهم لم يكن عن رغبة فى الايمان . . ولكنه كان عن محاولة للحصول على أمان دنيوى . . لأن اليهود كانوا يتوعدونهم ويقولون أتى زمن نبى سنؤمن به ونقتلكم به قتل عاد وإرم . . فأراد هؤلاء المنافقون أن يتقوا هذا القتل الذى يتوعدهم به اليهود . . فتصوروا أنهم اذا أعلنوا أنهم آمنوا بهذا النبى نفاقا أن يحصلوا على الأمن . .

إن الحق سبحانه وتعالى يعطينا هذه الصورة . . انهم اوقدوا هذه النار . . لتعطيهم نورا يريهم طريق الايمان . . وعندما جاء هذا النور بدلا من أن يأخذوا نور الايمان انصرفوا عنه . . وعندما حدث ذلك ذهب الله بنورهم . . فلم يبق فى قلوبهم شىء من نور الايمان . . فهم الذين طلبوا نور الايمان أولا . . فلما استجاب الله لهم انصرفوا عنه . . فكأن الفساد فى ذاتهم . . وكأنهم هم الذين بدأوا بالفساد . . وساعة فعلوا ذلك ذهب الله بنور الايمان من قلوبهم .

ونلاحظ هنا دقة التعبير القرآنى . . فى قوله تعالى : « ذهب الله بنورهم » ولم يقل ذهب الله بضوئهم . . مع أنهم أوقدوا النار ليحصلوا على الضوء . . فما هو الفرق بين الضوء والنور ؟ . . اذا قرأنا قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا ﴾

(من الآية ٥ سورة يونس)

نجد أن الضوء أقوى من النور . . والضوء لا يأتى إلا من اشعاع ذاتى . . فالشمس ذاتية الإضاءة . . ولكن القمر يستقبل الضوء ويعكس النور . . وقبل أن

تشرق الشمس تجد فى الكون نورا . . ولكن الضوء يأتى بعد شروق الشمس . . فلو أن الحق تبارك وتعالى قال ذهب الله بضوئهم . . لكان المعنى انه سبحانه ذهب بما يعكس النور . . ولكنه أبقى لهم النور . . ولكن قوله تعالى : « ذهب الله بنورهم » . . معناها أنه لم يبق لهم ضوءا ولا نورا . . فكأن قلوبهم يملؤها الظلام . . ولذلك قال الله بعدها ؛ « وتركهم فى ظلمات لا يبصرون » . . لنعلم انه لا يوجد فى قلوبهم أى نور ولا ضوء ايمانى . . كل هذا حدث بظلمهم هم وانصرافهم عن نور الله . .

ونلاحظ هنا أن الحق سبحانه وتعالى . . لم يقل وتركهم فى ظلام . . بل قال : « فى ظلمات » . . أى انها ظلمات متراكمة . . ظلمات مركبة لا يستطيعون الخروج منها أبدا . .

من أين جاءت هذه الظلمات ؟ . . جاءت لأنهم طلبوا الدنيا ولم يطلبوا الآخرة . . وعندما جاءهم نور الايمان انصرفوا عنه فصرف الله قلوبهم . .

مثلا اذا أخذنا قصة زعيم المنافقين عبدالله بن أُبَىّ ، نرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل المدينة واهلها يستعدون لتتويج عبدالله بن ابى ملكا عليها . . وعندما وصل رسول الله صلى الله عليه وسلم انصرف الناس عن عبدالله بن أبى الى استقبال الرسول عليه الصلاة والسلام . . فوصول الرسول عليه الصلاة والسلام ضيع على عبدالله بن أبى المُلْك . . ولقد كان من الممكن أن يؤمن . . وأن يلتمس النور من رسول الله صلى الله عليه وسلم . . ولو آمن حينئذ ربما أعطى فى الآخرة ملكا دائما . . يفوق الملك الذى كان سيحصل عليه فى الدنيا . . ولكن لأن فى قلبه الدنيا وليس الدين . . ولأنه يريد رفعة فى الدنيا . . ولا يريد جنة فى الآخرة ، فقد ملأ الحقد قلبه فكان ظلمة . . وملأ الحسد قلبه فكان ظلمة . . وملأت الحسرة قلبه فكانت ظلمة . . وملأت الكراهية والبغضاء قلبه فكانت ظلمة . . اذن هى ظلمات متعددة . .

وهكذا فى قلب كل منافق ظلمات متعددة . . ظلمة الحقد على المؤمنين وظلمة الكراهية لهم . . وظلمة تمنى هزيمة الايمان . . وظلمة تمنى أن يصيبهم سوء وشر . . وظلمة التمزق والألم من الجهد الذى يبذله للتظاهر بالايمان وفى قلوبهم الكفر . . كل

هذه ظلمات .. ولكن لا تحاول ان تأخذها بمقاييس عقلك .·. والمفروض أن المثل هنا لتقريب المعنى .. لأنك اذا قرأت قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ ﴾

(سورة الاسراء)

كيف يكون الحجاب مستورا ؟ .. مع أن الحجاب هو الساتر الذى يستر شيئا عن شيء .. ولكن الحق سبحانه وتعالى يريدنا أن نفهم .. انه برغم أن الحجاب يستر شيئا عن شيء ، فإن الحجاب نفسه مستور لا نراه .. وبعض العلماء يقولون : إن مستورا اسم مفعول .. وهو فى معنى اسم الفاعل ساتر .. نقول لا .. واقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ ﴾

(سورة مريم)

مأتيا اسم مفعول واسم الفاعل آتى .. ويقول البعض وضع اسم المفعول مكان اسم الفاعل .. نقول انك لم تفهم .. هل وعد الله يلح فى طلب العبد .. أم أن العبد يلح فى طلبه بعمله فكأنه ذاهب إليه .. والموعود هو المستفيد وليس الوعد ..

اذن من دقة القرآن الكريم .. انه يريد أن ينبهنا إلى ان الموعود هو الذى يسعى للقاء الوعد .. وليس الوعد هو الذى يطلب لقاء الموعود فيستخدم اسم الفاعل .

فحين يقول الحق سبحانه وتعالى : « وتركهم فى ظلمات لا يبصرون » .. نفى النور عنهم .. والنور لا علاقة له بالسمع ولا بالشم ولا باللمس .. ولكنه قانون البصر ..

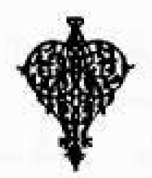
وانظر الى دقة التعبير القرآنى .. اذا امتنع النور امتنع البصر .. أى ان العين لا تبصر بذاتها .. ولكنها تبصر بانعكاس النور على الاشياء ثم انعكاسه على العين ..

واقرأ قوله تعالى :

﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾

(من الآية ١٢ سورة الاسراء)

فكأن الذى يجعل العين تبصر هو الضوء أو النور . . فإذا ضاع النور ضاع الابصار . . ولذلك فأنت لا تبصر الأشياء فى الظلام . . وهذه معجزة قرآنية اكتشفها العلم بعد نزول القرآن .



﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

فالحق سبحانه وتعالى . . بعد أن أخبرنا أنه بظلم هؤلاء المنافقين لأنفسهم . . ذهب بنور الايمان من قلوبهم فهم لايبصرون آيات الله . . أراد أن يلفتنا الى أنه ليس البصر وحده هو الذى ذهب . . ولكن كل حواسهم تعطلت . . فالسمع تعطل فهم صم . . والنطق تعطل فهم بكم . . والبصر تعطل فهم عمي . . وهذه هى آلات الادراك فى الانسان . . واقرأ قوله تبارك وتعالى :

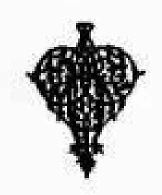
﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

(سورة النحل)

إذن كونهم فى ظلمات لايبصرون معناها أنها قد تعطلت وسائل الإدراك الأخرى ؛ فآذانهم صُمّت فهى لاتسمع منهج الحق ، وألسنتهم تعطلت عن نقل ما فى قلوبهم وأبصارهم لاترى آيات الله فى الكون إذن فآلات إدراكهم لهدى الله معطلة عندهم . .

وقوله تعالى : « فهم لايرجعون » . . أى لن تعود اليهم هذه الوسائل ليدركوا نور الله فى كونه . . الادراك غير موجود عندهم . . ولذلك فلا تطمعوا أن يرجعوا الى منهج الايمان أبدا . . لقد فسدت فى قلوبهم العقيدة . . فلم يفرقوا بين ضر عاجل وما هو نفع آجل . . نور الهداية كان سيجعلهم يبصرون الطريق الى الله . . حتى يسيروا على بينة ولا يتعثروا . . ولكنهم حينما جاءهم النور رفضوه وانصرفوا عنه . . فكأنهم انصرفوا عن كل مايهديهم الى طريق الله !!.

فالله سبحانه وتعالى فى هذه الآية الكريمة . . أعطانا وصفا آخر من صفات المنافقين هو أن ادوات الادراك التى خلقها الله جل جلاله معطلة عندهم . . ولذلك فان الاصرار على هدايتهم وبذل الجهد معهم لن يأتى بنتيجة . . لان الله تبارك وتعالى بنفاقهم وظلمهم عطل وسائل الهداية التى كان من الممكن أن يعودوا بها الى طريق الحق .



﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ ﴾

وقول الحق سبحانه وتعالى : « أو كصيب من السماء » . . الصيب هو المطر . . والله تبارك وتعالى ينزل الماء فتقوم به الحياة . . مصداقا لقوله جل جلاله :

﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة الانبياء)

ومن البديهى أننا نعرف أن إنزال المطر . . هو من قدرة الله سبحانه وتعالى وحده . . ذلك أن عملية المطر فيها خلق بحساب . . وفيها عمليات تتم كل يوم بحساب أيضا . . وفيها عوامل لايقدر عليها الا الله سبحانه وتعالى . . فمسألة المطر أعدت الأرض لها حين الخلق . . فكانت ثلاثة ارباع الارض من الماء والربع من اليابسة . . لماذا ؟ من حِكَمِ الله فى هذا الخلق ان تكون عملية البخر سهلة وممكنة . . ذلك أنه كلما اتسع سطح الماء يكون البخر أسهل . . واذا ضاق السطح تكون عملية البخر أصعب . . فاذا جئنا بكوب مملوء بالماء ووضعناه فى حجرة مغلقة يوما . . ثم عدنا اليه نجد أن حجم الماء نقص بمقدار سنتيمتر أو أقل . . فاذا أخذنا الماء الذى فى هذا الكوب وقذفناه فى الحجرة . . فإنه يختفى فى فترة قصيرة . . لماذا ؟ . ؛ لأن سطح الماء اصبح واسعا فتمت عملية البخر بسرعة .

والله سبحانه وتعالى حين خلق الارض . . وضع فى الخلق حكمة المطر فى أن تكون مساحة الماء واسعة لتتم عملية البخر بسهولة . . وجعل أشعة الشمس هى التى تقوم بعملية البخر من سطح الماء . . وتم ذلك بحساب دقيق . . حتى لاتغرق الامطار الأرض أو يحدث فيها جفاف . . ثم سخر الريح لتدفع السحاب الى حيث يريد الله أن ينزل المطر . . وقمم الجبال البارده ليصطدم بها السحاب فينزل

المطر . . كل هذا بحساب دقيق فى الخلق وفى كل مراحل المطر . .

ومادام الماء هو الذى به الحياة على الأرض . . فقد ضرب الله لنا به المثل كما ضرب لنا المثل بالنار وضوئها . . فكلها أمثلة مادية لتقرب الى عقولنا ما هو غيب عنا . . فالماء يعطينا الحياة . .

لكن هؤلاء المنافقين . لم يلتفوا الى هذا الخير . الذى ينزل عليهم من السماء من غير تعب او جهد منهم . بل التفتوا الى أشياء ثانوية ، كان من المفروض ان يرحبوا بها لانها مقدمات خير لهم . فالمطر قبل أن ينزل من السماء لابد أن يكون هناك شيء من الظلمة فى السحاب الذى يأتى بالمطر . فيحجب أشعة الشمس ان كنا نهارا . ويخفى نور القمر والنجوم ان كنا ليلا . هذه الظلمة مقدمات الخير والماء . .

إنهم لم يلتفتوا الى الخير الذى ملأ الله به سبحانه وتعالى الارض . بل التفتوا الى الظلمة فنفروا من الخير . . كذلك صوت الرعد ونور البرق . الرعد يستقبله الانسان بالأذن وهى آلة السمع . والبرق تستقبله العين . . وصوت الرعد قوى ، أقوى من طاقة الاذن . ولذلك عندما يسمعه الانسان يفزع ، ويحاول ان يمنع استقبال الاذن له ، بأن يضع أنامله فى أذنيه .

وهؤلاء المنافقون لم يضعوا الأنامل . ولكن كما قال الله سبحانه وتعالى : « يجعلون أصابعهم فى آذانهم » ولم يقل أناملهم . وذلك مبالغة فى تصوير تأثير الرعد عليهم . فكأنهم من خوفهم وذعرهم يحاول كل واحد منهم أن يدخل كل اصبعه فى اذنه . ليحميه من هذا الصوت المخيف . فكأنهم يبالغون فى خوفهم من الرعد .

ونلاحظ هنا أن الحديث ليس عن فرد واحد ، ولكن عن كثيرين . . لأنه سبحانه وتعالى يقول « أصابعهم » نقول ان الأمر لجماعة يعنى أمراً لكل فرد فيها ، فاذا قال المدرس للتلاميذ أخرجوا أقلامكم ، فمعنى ذلك ان كل تلميذ يخرج قلمه . . واذا قال رئيس الجماعة اركبوا سياراتكم ، فمعنى ذلك أن كل واحد يركب سيارته . . لذلك فان معنى « يجعلون أصابعهم فى آذانهم » ان كل واحد منهم يضع اصبعيه فى أذنيه . .

لماذا يفعلون ذلك ؟! انهم يفعلونه خوفا من الموت . لان الرعد والبرق يصاحبهما الصواعق احيانا ، ولذلك فإنهم من مبالغتهم فى الخوف يحس كل واحد منهم ان

صاعقة ستقتله . . فكأنهم يستقبلون نعمة الله سبحانه وتعالى بغير حقيقتها . . هم لايرون النعمة الحقيقية فى ان هذا المطر يأتى لهم بعوامل استمرار الحياة . ولكنهم يأخذون الظاهر فى البرق والرعد . وكذلك المنافقون . . لايستطيع الواحد منهم ان يصبر على شهوات نفسه ونزواتها . . انه يريد ذلك العاجل ولاينظر الى الخير الحقيقى الذى وعد الله به عباده المؤمنين فى الآخرة . . وهو ينظر الى التكاليف كأنها شدة ومسألة تحمل النفس بعض المشاق . ويغفل عن حقيقة جزاء التكاليف فى الآخرة . وكيف انها ستوفر لهم النعيم الدائم . . تماما كما ينظر الانسان الى المطر على أنه ظلمة ورعد وبرق ، وينسى انه بدون هذا المطر من المستحيل ان تستمر حياته . .

هم يأخذون هذه الظواهر على أنها كل شىء . بينما هى فى الحقيقة تأتى لوقت قصير وتختفى ، فهى قصيرة كالحياة الدنيا ، وقتية . ولكن نظرتهم اليها وقتية ومادية لانهم لايؤمنون الا بالدنيا وغفلوا عن الآخرة . . غفلوا عن ذلك الماء التى يبقى فترة طويلة ، وتنبهوا الى تلك الظواهر الوقتية التى تأتى مع المطر فخافوا منها وكان خوفهم منها يجعلهم لايحسون بما فى المطر من خير . والمنافقون يريدون ان يأخذوا خير الاسلام دون ان يقوموا بواجبات هذا الدين !!

ثم يلفتنا الحق سبحانه وتعالى الى قضية هامة . وهى ان خوفهم من زوال متع الدنيا ونفوذها لن يفعل لهم شيئا . لأن الله محيط بالكافرين . . والاحاطة معناها السيطرة التامة على الشىء بحيث لايكون امامه وسيلة للافلات ، وقدرة الله سبحانه وتعالى محيطة بالكافرين وغير الكافرين . .

اذن عدم التفاتهم للنفع الحقيقى ، وهو منهج الله ، لايعطيهم قدرة الافلات من قدرة الله سبحانه وتعالى فى الدنيا والآخرة .

